علي الجندي

الصمتُ الكبير

(الى الاصدقاء ، المطوّقين عند حدود صمتي)

... وتولّتْ غابةُ الالوان عنّي ،
شُجّ رأسُ الطائر المنفيّ في عشّ الرياح
زال عهد القمر .
ايّها المدلجُ في فجر الصحارى ،
أوقفِ الركبَ خشوعاً ،
وترجّلْ عن جناح الطائر الميمون ، صلِّ
انتَ في ارضِ الهِ الحجرِ .

●

ماذا يُطربُني ،
ويمزّقُ صدري ؟
اسمعُ اصواتاً خافتةَ الجرسِ
تتساقطُ حولي اغنيةُ النعشِ
يتفتّحُ في قلبي دمّلُ حبٍّ منطفىءٍ :

آهِ الليلُ سفينةُ اشباحٍ سكرَى
مرّي جنّيّةَ اظفارِ العطرِ على صدري
مُرّي
تنطفىءِ الحسرة في عيني .
اخطرْ يا قنديلَ الدمعِ
تتلامحْ في الظلمة شعلتُكَ الحيرَى
تتوارى ، تتلاشى الاصداءْ ،
الليلُ ، الليلُ يمرُّ على دُور الاحياءْ ،
دقّات العكازِ تجرّحُ وجهَ الصمتِ
مرّتْ قافلةُ الانواءْ
و ... يرينُ الجرحُ على مملكةِ النومِ .

●

ـ ما الذي تبحثُ عنه ،
في النفايات الحزينة ؟
سكنتْ في برجك المظلمِ اصواتُ المدينةْ
هدأتْ في صدركَ المرهقِ ارواحُ السكينةْ
فترحّلْ ، عُدْ الى جنّتكَ الصحراءِ ... واستوحِ فتونهْ .

ـ جرّحيني يا ابتساماتِ الطفولةْ ،
مزّقي ارضي البخيلةْ
وأعيدي لمياهي العكرةْ
صوَتها المبحوح ، رجّي وجهَها الطافح صمتاً

لوّنيها ، وارحلي ،
عن حوافي وحلِها المنتصرةْ .
ــلماذا تُشعلُ التاريخَ ، كي تدفىءَ اطلالَكْ ؟
اما جفّتْ ينابيعُ الرؤى ؟
روّعتَ اطفالَكْ .
ــ لم يبقَ في العالم الا الطلولْ ؛
فها هنا قاعدةٌ خاليةْ ،
وقربَها تمثالُها ساقطٌ
يسترحمُ الاحجارَ ... قلبٌ ذليلْ .
وقربه بعضُ عمودٍ على
جراحِه قافيةُ المستحيلْ
وها هنا بقيةٌ مُرّةٌ
لهيكلٍ حجارة غاويةْ .
سُمّارهُ ، كُهّانهُ ، رُكّعٌ ،
صلاتُهم جامدةٌ ، والذهولْ .

مملكةٌ للبومِ ، جيرانُها
الغربانُ ، والفئرانُ ، والملْكُ غولْ .
وها هنا واجهةٌ عاريةْ
ممسوحةٌ احرفُ عنوانِها
عرّشتِ الافعى على صدرها
فرّخَ في محجرها المستحيلْ .
ومعبدُ النار بلا كاهناتْ ؛
حتى رمادُ النار لم يبق من
آثاره بقية للحياةْ .

التترُ الخالونَ مرّوا على
ارجائه وخلّفوا العاصفةْ
فيا رياحَ الغيب لا تُعوِلي :
في صمتِهِ ارواحُهُ خائفةْ

●

في جوف الحوت يدبّ النسلُ الاصفرْ ،
التبرُ عصافيرٌ لعيونهم تنقرْ ،
وتردّدُ جدران الجوف المظلمْ
اصداءَ انينٍ متكتّمْ .

ــقابعٌ وحدَكَ في بئر الافاعي تتجبّرْ ،
تُنكرُ النورَ الذي يمرح في الفوهة ، تكفرْ .
انتَ لا شيءَ سوى بئرِ افاعٍ ،
انتَ تنّينٌ من الظلمة موهونُ الشعاعِ ،
انتَ اكبرْ ،
انتَ اصغرْ ،
انتَ لا شيءَ و ... اكثرْ !
ــ ميلادُ الهوّةِ في اغوارِ حياتي عنوانٌ قاتمْ ،
والحوتُ يدورُ بنا ،
يحملُنا ،
وهو على وجه الظلماتِ خيالٌ هائمْ .
لم تبقَ نوافذُ للجوف المظلم
أغلقتِ الريحُ الرمليةْ

كلُّ الآفاقِ الصيفيّةْ .
لم يبقَ لنا الا الجبلُ الاجردْ ،
لكن سفينتَنا
تترنّحُ ، تسكرُنا ،
يحملُها البحرُ الاسودْ .

●

امّا الذي اعرفُه عنهُ
فانّه حكايةٌ تُتلَى ؛
مرَّ بنا ، مرّةْ ،
اقام ما بيننا ،
سلّمنا سرَّهْ ،
وغاب عن ارضنا .

●

انه سيّدُ الوانِ الصباحِ
ولدتْهُ العاصفةْ ،
شعرُهُ خصلاتُ نارٍ
فمُه منقارُ عنقاءِ الرياحِ ؛
ـ هل له عينا اله او نبيّ ؟ .
ـ انفُه خنجر فتحٍ جاهليّ .
صدرُه قلعةُ حبٍ وثنيّ .
حاملٌ في كفّه دوماً عصاهُ تتلوّى .

– اهيَ افعى ؟
كلما مرّرها فوق جبين الماء تنشقُّ دروبُ الابديّةْ .
كلما مسّ بها الريحَ دوى صوتُ خيولٍ عربيّةْ .
ولقد شجّ بها وجهَ السماء
فرأينا سُحُباً من زبد البحرِ : جبالاً من هبابْ ،
ورأينا وجهَ عفريتٍ عجيبْ
بين امواج السرابْ .
– ثمّ ... ماذا ؟
– ثمّ ؟ لا شيءَ سوى قفرٍ رهيبْ .

●

هو ذكرى ،
كلُّ ما خلّفه للارض ذكرى ... مقبلةْ ،
لم تعدْ غيرَ امانٍ مهملةْ ،
غاب عن بيت ابيهِ ، عاش ذكرى .

ايّها المدلجُ في غيهبِ فجرٍ متعبِ
ان يكنْ مات ابي
فتوقّفْ عند اعتابِ الالوهةْ ،
لا تُصلّ ،
مات ربّانُ القبيلةْ .

ولقد حمّلَنا عبءَ الرسالةْ ؛
« الدمُ الاسودُ نهرٌ ليس ينضبْ ،

بالدم المحرورِ نكتب ،
الدمُ الناصلُ في الاعماقِ فجرُ ،
الدمُ المرجوجُ في اغوارِ اغوارِ الصحارى ،
الدمُ الاحمرُ سحرُ . »

●

ــ الجرادَ الحاملُ الايمانَ رايةْ ،
هبَّ من غفوتهِ ، وانداحَ في الآماد آيةْ .
لا تقفْ في وجههِ ،
وتحاشَ مدَّه المسعورَ واهربْ .
ــ جسدي ظلٌّ شفيفُ اللونِ ، ذكرى .
جسدي منديلُ شوقٍ يتلهّبْ
عالقٌ في غصنها للتينةِ العجفاءِ ، متروكٌ لانيابِ الرياح .
ــ لعنةٌ هذا الجسدْ ،
ــ نعمةٌ هذا الجسدْ!
ليتكمْ تدرون ما في الجسد المحموم من دنيا جميلةْ ،
انه فجرٌ ، ربيعٌ ، والهٌ ، وطفولةْ .
لو تأمّلتمْ ثناياهُ ، تنعّمْتمْ بهِ ، نلتمْ ثمارَهْ
لو سمعتمْ وقعَهُ المحزونَ في احضانِ ذكرى
لو تحسّون الفلكَ الموهنَ في نهديهِ ، في ثنيةِ خصرِهْ ،
لو تملّيتمْ جوارَهْ .
ــ هذا الجمالُ المرمريُّ
وهو فانٍ ، هو ارضٌ للخطيئةْ ،
وثنيٌّ .

انتَ تمثالٌ من النارِ ، قطارٌ بربريٌّ ،
انت ذكرى للحطيئةْ !
عندما يهتكُ عنه الثوبَ ، ينهد على صدرِ سريرٍ في عياءِ
يزأرُ التاريخُ في سرّته ، تنهلُّ شهوات السماءِ .
ـ لا تقاربْ ارَضنا ،
وترَّحلْ دونَ كلمةْ
انتَ موبوءٌ جميلُ
ايّها الشاهقُ في وجهِ امانينا ، ترحّلْ .
ـ النهرُ البركانيُّ يلوّحُ لي من بعـدٍ ، يدعوني ؛
الارضُ تميدُ ، ووجهُ الرؤيا يحميني .

●

وعالمُ الشقائقِ الموتورةِ الندَى
تحجّرتْ طيوبُهُ على رفات السيّدِ الحزينْ ،
تحضن من رفاته نقاوةَ العيونْ .
وفي مكانِ عرشِهِ المشيّدِ بالهوَى
تولولُ الرياحُ ، امتلا الفراغُ بالصدَى .

●

اقفرتْ من ريحها الذاهب نحو الهاويةْ
غابةُ الالوانِ ، والطيبُ تحجّرْ ،
هي نارٌ ذاويةْ
وعلى مفرقها التاريخُ يزأرْ .